عبادة غير الله ، وأن محمداً سيظل على عبادة الله ، وأن كلمة «الله» ستعلو ؛ لأن الحق سبحانه يأتى بعد سورة «الكافرون» بقوله تعالى:

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ① وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ② فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا[1] ③﴾ [النصر]

وهنا يقول الحق سبحانه:

﴿فَاسْتَقِمْ[2] كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا[3] إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾﴾

والاستقامة معناها: عدم الميل أو الانحراف - ولو قيد شعرة - وهذا أمر يصعب تحقيقه ؛ لأن الفاصل بين الضدين ، أو بين المتقابلين هو أدق من الشعرة فى بعض الأحيان.

ومثال ذلك: حين ترى الظل والضوء ، فأحياناً يصعد الظل على الضوء ، وأحياناً يصعد الضوء على الظل ، وسنجد صعوبة فى تحديد الفاصل بين الظل والنور ، مهما دقت المقاييس.

---

(١) يقول الله تعالى لنبيه محمد ﷺ : إذا جاءك نصر الله - يا محمد - على قومك من قريش، والفتح: فتح مكة. ورأيت الناس: من صنوف العرب وقبائلها يدخلون فى دين الله أفواجاً: أى: فى دين الله الذى ابتعثك به. أفواجاً : يعنى: زمراً (جماعات) ، فوجاً فوجاً . فسبح بحمد ربك: أى : فسبح ربك وعظمه بحمده وشكره، واستغفره : وسله أن يغفر ذنوبك. إنه كان تواباً : أى: ذا رجوع لعبده المطيع إلى ما يحب. [مختصر تفسير الطبرى - بتصرف].

(٢) استقام الشىء : خلا من العوج. واستقام المؤمن : سلك الطريق القويم. قال تعالى: ﴿فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ .. ⑦﴾ [التوبة] أى: حافظوا على الوفاء لهم بعهدكم ما داموا هم يحافظون على عهودكم، ولم ينكثوا العهد معكم. [القاموس القويم : مادة (قوم)].

(٣) طغا يطغو طغواناً وطغوى: فعل واوى، بمعنى: تجاوز الحد فى الجور والتعدى. وطغى يطغى وطغى طغياناً : فعل يائى، بمعنى: تجاوز الحد. قال تعالى: ﴿الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ⑪﴾ [الفجر]. أى: ظلموا وتجاوزوا الحد فى العصيان. [القاموس القويم : مادة (طغى)].

وهكذا يصبح فصل الشيء عن نقيضه صعباً ، ولذلك فالاستقامة أمر شاق للغاية.

وساعة أن نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ : «شيبتني هود وأخواتها»[1].

ولولا أن قال الحق سبحانه في كتابه الكريم:

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ[2] .. (١٦)﴾ [التغابن]

فلولا نزول هذه الآية لتعب المسلمون تماماً ، وقد أنزل الحق سبحانه هذا القول بعد أن قال:

﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ[3] .. (١٠٢)﴾ [آل عمران]

وعزَّ ذلك على صحابة رسول الله ﷺ ، فأنزل الحق سبحانه ما يخفف به عن أمة محمد ﷺ بأن قال سبحانه:

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ .. (١٦)﴾ [التغابن]

إذن: فالأمر بالاستقامة هو أمر بدقة الأداء المطلوب لله أمراً ونهياً ، بحيث لا نميل إلى جهة دون جهة.

---

(١) عن أبي جحيفة قال: قالوا يا رسول الله نراك وقد شبت؟ قال: «شيبتني هود وأخواتها» أخرجه أبو نعيم في الحلية (٤ / ٣٥٠) وأورده الهيثمي في المجمع (٧/٣٧) من حديث عقبة بن عامر وعزاه للطبراني وقال: رجاله رجال الصحيح، وأخوات سورة هود التي شيبت رسول الله هي سورة الواقعة والمرسلات والنبأ والتكوير. انظر الترمذي في سننه (٣٢٩٧).

(٢) اتقى: أصله (أوتقى) على وزن (افتعل) ، قلبت واو الفعل تاء، وادغمت في تاء الافتعال. واتقى الله: تجنب ما يغضبه، وما يسبب عذابه، وذلك بطاعة الله، وبالبعد عن معصيته. قال تعالى: ﴿.. لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١)﴾ [البقرة] أي: تحفظون أنفسكم من عذاب الله بطاعته وترك معصيته. [القاموس القويم: مادة (و ق ى)].

(٣) التقاة: الاتقاء والتقوى، وأصلها: وقية، قلبت الواو تاء، والياء ألفاً. وجمعها: تقى. قال تعالى: ﴿إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً .. (٢٨)﴾ [آل عمران] . أي: إلا أن تخافوا منهم شراً، وتحذروا منهم مكروهاً، لا تريدونه لأنفسكم. [القاموس القويم : مادة (وقى)].

وهكذا تطلب الاستقامة كامل اليقظة وعدم الغفلة.

ويقول الحق سبحانه:

﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ .. (١١٢) ﴾ [هود]

وهذا إيذان بألاَّ ييأس رسول الله ﷺ من وقوف صناديد قريش أمام دعوته ﷺ ؛ لأنهم سيتساقطون يوماً بعد يوم.

وقول الحق سبحانه:

﴿ .. وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١٢) ﴾ [هود]

يعنى ألا نتجاوز الحد ، فالطغيان هو مجاوزة الحد.

وهكذا نعلم أن الإيمان قد جعل لكل شيء حداً ، إلا أن حدود الأوامر غير حدود النواهى ؛ فالحق سبحانه إن أمرك بشيء ، فهو يطلب منك أن تلتزمه ولا تتعده.

وقال الحق سبحانه:

﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا [1] .. (٢٢٩) ﴾ [البقرة]

وهذا القول فى الأوامر ، أما فى النواهى فقد قال سبحانه:

﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا [2] .. (١٨٧) ﴾ [البقرة]

---

(١) اعتدى: ظلم وجار. قال تعالى: ﴿ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ .. (١٩٤) ﴾ [البقرة] أي: فعاقبوه على اعتدائه. وسُمِّي عقاب المعتدى اعتداءً؛ للمشاكلة. وعدا يعدو، عدواً : جرى. وعدا عليه عدواً وعدواناً : ظلمه وصال عليه، مثل: اعتدى عليه. والمراد بعدم الاعتداء هنا: عدم تجاوز حدود الله التى نهى سبحانه عن اقترافها. [القاموس القويم : مادة (عدا) بتصرف].

(٢) قربت الأمر، أقربه قرباناً وقرباً: فعلته أو دانيته. ومنه قول الله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ .. (٣٢) ﴾ [الإسراء] وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ .. (٣٥) ﴾ [البقرة] أي: لا تأتياها ولا تلمساها ولا تأكلا منها والنهى من باب أولى عن الشيء. وكذلك: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ .. (٣٢) ﴾ [الإسراء] فإنه نهى عن القرب منه، وهو نهى عن اللمس وعن القبلة ونحوها مما يقرب الإنسان من الوقوع فيه. [القاموس القويم : مادة (ق ر ب)].

أى: أن تبتعد عنها تماماً.

ويقول رسول الله ﷺ : «من وقع فى الشبهات وقع فى الحرام كالراعى يرعى حول الحمى [١] يوشك أن يرتع [٢] فيه ، ألا وإن لكل ملكٍ حمى، ألا وإن حمى الله محارمه» [٣].

وحين ينهانا الحق سبحانه عن الاقتراب من شىء فهذه هى استقامة الاحتياط ، وهى قد تسمح لك بأن تدخل فى التحريم ما ليس داخلاً فيه ، فمثلاً عند تحريم الخمر ، جاء الأمر باجتنابها أى: الابتعاد عن كل ما يتعلق بالخمر حتى لا يجتمع المسلم هو والخمر فى مكان.

وجعل الحق سبحانه أيضاً الاستقامة فى مسائل الطاعة ، وهو سبحانه يقول:

﴿ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلا تُسْرِفُوا [٤] .. (١٤١) ﴾ [الأنعام]

---

(١) قال النووى فى شرحه: «معناه أن الملوك من العرب وغيرهم يكون لكل ملك منهم حمى يحميه عن الناس ويمنعهم دخوله، فمن دخله أوقع به العقوبة، ومن احتاط لنفسه لا يقارب ذلك الحمى، خوفاً من الوقوع فيه» (٣/ ١٢٢٠) ط. فؤاد عبد الباقى.

(٢) الرتع: الأكل بشره. والرتع فى الخصب هو الرعى فيه. وأرتع القوم: وقعوا فى خصب ورعوا. [اللسان : مادة رتع].

(٣) متفق عليه. أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٠٥١) ومسلم فى صحيحه (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير.

(٤) أسرف : جاوز القصد والاعتدال، فهو سرف، ويكون فى المال وفى غيره. قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا (٦٧) ﴾ [الفرقان] أى: معتدلاً فى إنفاق المال. وقال تعالى: ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ .. (٥٣) ﴾ [الزمر] أى: جاوزوا القصد والاعتدال فى أمور كثيرة، فأكثروا الذنوب على أنفسهم. وقال تعالى: ﴿ فَلا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ .. (٣٣) ﴾ [الإسراء] أى : لا يقتل أكثر من القاتل، كما كانوا يفعلون فى الجاهلية، فيقتلون بالشريف عدداً من قبيلة القاتل. وقال تعالى: ﴿ وَلا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (١٥١) ﴾ [الشعراء] والإسراف يكون فى أمور كثيرة، لا فى إنفاق المال وحده، ومن حكم الصالحين : لا إسراف فى الخير. ولا خير فى الإسراف. [القاموس القويم : مادة (سرف)].

والنهى عن الإسراف هنا ؛ ليعصمنا الحق سبحانه من لحظة نتذكر فيها كثرة ما حصدنا ، ولكننا لا نجد ما نقيم به الأود [١] فقد يسرف الإنسان لحظة الحصاد لكثرة ما عنده ، ثم تأتى له ظروف صعبة فيقول: «يا ليتنى لم أُعْطِ». وهكذا يعصمنا الحق سبحانه من هذا الموقف.

ويقول رسول الله ﷺ : «سدِّدوا [٢] وقاربوا واعلموا أنه لن يدخل أحدكم عمله الجنة ، وأن أحب الأعمال أدومها إلى الله وإن قل» [٣] ؛ لأن الدين قوى متين [٤] ، و« لن يشاد الدين أحد إلا غلبه » [٥].

وهكذا نجد الحق سبحانه ونجد رسوله ﷺ أعلم بنا ، والله لا يريد منا عدم الطغيان من ناحية المحرمات فقط ، بل من ناحية الحلِّ أيضاً، فيوصينا سبحانه بالرفق واللين والهوادة ، وأن يجعل الإنسان لنفسه مُكْنة الاختيار.

ومثال ذلك: أن يلزم الإنسان نفسه بعشرين ركعة كل ليلة ، وهو يلزم نفسه بذلك نذراً لله تعالى فى ساعة صفاء ، لكنه حين يبدأ فى مزاولة ذلك القدر يكتشف صعوبته ، فتكرهه نفسه.

---

(١) الأود : أى ما يكون قوتاً ضرورياً له، فتقوم به حياته.

(٢) سد الشيء سداداً وسدوداً : استقام. يقال: سد السهم، وسد فلان: أصاب قوله وفعله. وسد قوله وفعله: استقام وأصاب، فهو سديد. والسداد: الاستقامة والقصد، والصواب من القول والفعل. [المعجم الوسيط : مادة (سدد) بتصرف].

(٣) متفق عليه. أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٤٦٢) ومسلم فى صحيحه (٢٨١٦) عن أبى هريرة .

(٤) عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «إن هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق» أخرجه أحمد فى مسنده (٣/١٩٩).

(٥) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «إن هذا الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا وأبشروا ويسروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة» أخرجه النسائى فى سننه (٨/١٢٢).

ولذلك يأمرنا الحق سبحانه بالاستقامة وعدم الطغيان ؛ استقامة فى تحديد المأمور به والمنهى عنه ؛ ولذلك كان الاحتياط فى أمر العبادات أوسع لمن يطلب الاستقامة.

ويقول رسول الله ﷺ : «الحلال بيِّن[١]، والحرام بين ، وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ[٢] لدينه وعرضه»[٣].

ولذلك يطلب الشارع الحكيم سبحانه منا فى الاحتياط أن نحتاط مرة بالزيادة ، وأن نحتاط مرة بالنقص ، فحين تصلى خارج المسجد الحرام، يكفيك أن تكون جهتك الكعبة ، أما حين تصلى فى المسجد الحرام ، فأنت تعلم أن الكعبة قسمان: قسم بنايته عالية ، وقسم اسمه «الحطيم»[٤] وهو جزء من الكعبة ، لكن نفقتهم أيام رسول الله ﷺ قد قصرت ؛ فلم يبنوه[٥].

لذلك فأنت تتجه ببصرك إلى البناء العالى المقطوع بكعبيته ، وهذا هو الاحتياط بالنقص.

---

(١) بيِّن: صيغة مبالغة من البيان: أى: شديد الوضوح.

(٢) استبرأ من الدَّين والذنب: طلب البراءة منه. واستبرأ الشىء: تقصى بحثه ليقطع الشبهة عنه. [المعجم الوسيط : مادة (برأ)].

(٣) متفق عليه. أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٠٥١) ، ومسلم فى صحيحه (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير.

(٤) الحطيم: الجدار، وهو هنا جدار الكعبة. قال الأزهرى: الذى فيه الميزاب، وإنما سمى حطيماً لأن البيت رفع وترك ذلك محطوماً. [اللسان ، مادة : حطم].

(٥) عن عائشة رضى الله عنها قالت: سألت رسول الله ﷺ عن الجدر (هو حجر الكعبة) أمن البيت هو؟ قال: نعم. قلت: فلم لم يدخلوه فى البيت؟ قال: إن قومك قصرت بهم النفقة. قلت: فما شأن بابه مرتفعاً؟ قال: فعل ذلك قومك ليدخلوا من شاؤوا ويمنعوا من شاؤوا، ولولا أن تنكر قلوبهم لنظرت أن أدخل الجدر فى البيت وأن ألزق بابه بالأرض» متفق عليه. أخرجه البخارى فى صحيحه (١٥٨٤) ومسلم فى صحيحه (١٣٣٣ - رواية رقم ١٠).

أما الاحتياط بالزيادة ، فمثال ذلك: هو الطواف ، وقد يزدحم البشر حول الكعبة ، ولا تسمح ظروفك إلا بالطواف حول المسجد.

وهكذا يطول عليك الطواف ، لكنه طواف بالزيادة، فعند الصلاة يكون الاحتياط بالنقص، أما عند الطواف فيكون الاحتياط بالزيادة.

وهكذا نجد الاحتياط هو الذى يحدد معنى الاستقامة.

ويُنهى الحق سبحانه الآية بقوله تعالى:

﴿.. إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١٢)﴾ [هود]

وفى الآية السابقة قال سبحانه : ﴿.. إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١١١)﴾ [هود]

وعلمنا معنى الخبير ، أما المقصود بالبصير هنا فهو أنه سبحانه يعلم حركة العبادة؛ لأن حركة العبادة مرئية.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ (١) إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ (١١٣)﴾

---

(١) ركن يركن ركنا وركونا: مال إليه وسكن. وركن الشىء: جانبه الأقوى. قال تعالى: ﴿.. أَوْ آوِى إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ (٨٠)﴾ [هود] أى: ألجأ إلى حصن قوى يحميني، أو إلى رجل قوى يحميني وينصرني عليكم، كأنه ركن ممتنع حصين. وقال تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ .. (١١٣)﴾ [هود] أى: لا تميلوا إليهم وتعتمدوا عليهم. وقال تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا (٧٤)﴾ [الإسراء] أى: تميل إليهم. [القاموس القويم : مادة (ركن)].

والكافرون - كما نعلم - قد عرضوا على رسول الله ﷺ أن يعبد آلهتهم سنة ، وأن يعبدوا هم الله سنة ، ولكن الحق سبحانه قطع وفصل فى هذا الأمر.

ويأتى هنا توكيد هذا الأمر ؛ فيقول سبحانه:

﴿ وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا[1] .. (١١٣) ﴾ [هود]

والركون هو الميل والسكون والمودة والرحمة. وأنت إذا ركنت للظالم ؛ أدخلت فى نفسه أن لقوته شأناً فى دعوتك.

والركون أيضاً يعني: المجاملة ، وإعانة هذا الظالم على ظلمه ، وأن تزيِّن للناس ما فعله هذا الظالم.

وآفة الدنيا هى الركون للظالمين ؛ لأن الركون إليهم إنما يشجعهم على التمادى فى الظلم ، والاستشراء فيه. وأدنى مراتب الركون إلى الظالم ألا تمنعه من ظلم غيره. وأعلى مراتب الركون إلى الظالم أن تزين له هذا الظلم ؛ وأن تزين للناس هذا الظلم.

وأنت إذا استقرأت وضع الظلم فى العالم كله لوجدت آن آفات المجتمعات الإنسانية إنما تنشأ من الركون إلى الظالم ؛ لكنك حين تبتعد عن الظالم ، وتقاطعه أنت ومن معك ؛ فلسوف يظن أنك لم تُعرِْض عنه إلا لأنك واثق بركن شديد آخر ؛ فيتزلزل فى نفسه ؛ حاسباً حساب القوة التى تركن إليها ؛ وفى هذا إضعاف لنفوذه ؛ وفى هذا عزلة له وردع ؛ لعله يرتدع عن ظلمه.

---

(١) الظلم : مجاوزة الحد ومفارقة الحق أو هضمه وانتقاصه، وهو ضد العدل، قال تعالى: ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٨) ﴾ [النحل] والظالم اسم فاعل يقول الحق: ﴿ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ .. (٣٥) ﴾ [الكهف]، والظلام صيغة مبالغة يقول الحق: ﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤) ﴾ [إبراهيم] وظلام صيغة مبالغة يقول الحق : ﴿ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (٢٩) ﴾ [ق] ، ومظلوم اسم مفعول يقول الحق : ﴿ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا .. (٣٣) ﴾ [الإسراء] [القاموس القويم ١/٤١٦ ، ٤١٧].

والركون للظالم إنما يجعل الإنسان عرضة لأن تمسه النار بقدر آثار هذا الركون ؛ لأن الحق سبحانه يقول:

﴿ وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ (١) النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ (١١٣) ﴾ [هود]

فأنتم حين تركنون إلى ظالم إنما تقعون في عداء مع منهج الله ؛ فيتخلى الله عنكم ولا ينصركم أحد ؛ لأنه لا وليّ ولا ناصر إلا الله تعالى.

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك:

﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا (٢) مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ (١١٤) ﴾

وهذا أمر بالخير ؛ يوجهه الله سبحانه إلى رسوله ﷺ .

ونحن نلحظ في هذه الآيات من سورة هود أنها تحمل أوامر ونواهي ؛ الأوامر بالخير دائماً ؛ والنواهي عن الشر دائماً.

ونلحظ أن الحق سبحانه قال:

﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ .. (١١٢) ﴾ [هود]

---

(١) مسّه يمسّه مسّاً : أجرى يده عليه من غير حائل.
ومسته النار: أصابته، وباشرت جلده؛ فآذته.
ومسه المرض – على المجاز – : أصابه. قال تعالى: ﴿ .. وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا (٨٣) ﴾ [الإسراء].
[القاموس القويم : مادة (مس)].

(٢) زلف إليه يزلف زلفة وزلفى: قَرُبَ ودنا. قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً .. (٢٧) ﴾ [الملك] أي : قريباً . وهو وصف بالمصدر بلفظه، ويعرب حالاً، أي: ذا قرب، أي: قريباً قرباً شديداً.
والزلفى: القرب والمنزلة والدرجة. قال تعالى: ﴿ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ .. (٣٧) ﴾ [سبأ] أي: قرباً، مفعول مطلق مرادف ، أو تقربكم درجة ومنزلة قريبة منا. والزلفة: الطائفة من الليل، وجمعها: زلف. قال تعالى: ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ .. (١١٤) ﴾ [هود] أي: أوقاتاً وساعات من الليل. قيل: في أوله. وقيل: في أي وقت فيه. [القاموس القويم : مادة (زلف)].

ثم وَجَّه النهى للأمـة كلها: ﴿ وَلَا تَطْغَوْا .. (١١٢) ﴾ [هود] ولم يقل: «فاستقم ولا تطغى» لأن الأمر بالخير يأتى للنبى ﷺ وأمته معه ؛ وفى النهى عن الشر يكون الخطاب موجهاً إلى الأمة ، وفى هذا تأكيد لرفعة مكانة النبى ﷺ .

ونرى نفس الأمر حين يوجـه الحق سبحانه الحديث إلى أمـة محمد ﷺ فيقول سبحانه وتعالى:

﴿ وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا .. (١١٣) ﴾ [هود]

ولم يقل: «ولا تركن إلى الذين ظلموا».

وهنا فى الآية التى نحن بصدد خـواطرنا عنها يقول الحق سـبحانه لرسوله ﷺ ولأمته:

﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ .. (١١٤) ﴾ [هود]

والإقامة تعنى: أداء المطلوب على الوجه الأكمل ، مثل إقامة البنيان ؛ وأن تجعله مؤدياً للغرض المطلوب منه.

ويقال: «أقام الشيء» أى: جعله قائماً على الأمر الذى يؤدى به مهمته.

وقول الحق سبحانه:

﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ [1] النَّهَارِ .. (١١٤) ﴾ [هود]

أى: نهـايته من ناحـية ، ونهـايته من الناحـية الأخـرى ؛ لأن طرف الشيء هو نهايته.

---

(١) الطرف – بفـتح الراء – : الجانب، ومنتـهى الشىء. قال تعـالى: ﴿ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا .. (١٢٧) ﴾ [آل عمران] أى: يهلك جانبـاً منهم، أى: طائفة منهم. وقال تعالى: ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ .. (١١٤) ﴾ [هود] أى: صباحـاً ومساءً، والمراد: جميع الأوقـات. ويؤيده قوله تعالى: ﴿ .. وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ (١٣٠) ﴾ [طه] أى: جـميع الأوقـات [القامـوس القويم، مـادة: طرف].

وتتحدد نهاية الطرفين من منطقة وسط الشيء ، فالوسط هو الفاصل بين الطرفين ؛ فما على يمين الوسط يعد طرفاً ؛ وما على يسار الوسط يعد طرفاً آخر ؛ وكل جزء بعد الوسط طرف.

وعادةً ما يعد الوسط هو نقطة المنتصف تماماً ، وما على يمينها يقسم إلى عشرة أجزاء ، وما على يسارها يقسم إلى عشرة أجزاء أخرى ، وكل قسم بين تلك الأجزاء التى على اليمين والتى على اليسار يعد طرفاً.

وقول الحق سبحانه:

﴿ وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ .. (١١٤) ﴾ [هود]

يقتضى أن تعرف أن النهار عندنا إنما نتعرف عليه من بواكير الفجر الصادق ، وهذا هو أول طرف نقيم فيه صلاة الفجر ، ثم يأتى الظهر؛ فإن وقع الظهر قبل الزوال [١] حسبناه من منطقة ما قبل الوسط ، وإن كان بعد الزوال حسبناه من منطقة ما بعد الوسط.

وبعد الظهر هناك العصر ، وهو طرف آخر [٢].

وقول الحق سبحانه:

﴿ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ .. (١١٤) ﴾ [هود]

يقتضى منا أن نفهم أن كلمة ﴿زُلَفًا﴾ هى جمع: زلفة، وهى مأخوذة من: أزلفه ، إذا قرَّبه.

والجمع أقله ثلاثة ؛ ونحن نعلم أن لنا فى الليل صلاة المغرب ، وصلاة

---

(١) الزوال: الوقت الذى تكون فيه الشمس فى كبد السماء. [المعجم الوسيط : مادة (زول)].

(٢) قال مجاهد: الطرف الأول صلاة الصبح، والطرف الثانى صلاة الظهر والعصر، واختاره ابن عطية. وقيل: الطرفان الصبح والمغرب. قاله ابن عباس والحسن. وعن الحسن أيضاً: الطرف الثانى العصر وحده، وقاله قتادة والضحاك. نقله القرطبى فى تفسيره (٤/٣٤٢٨).

العشـاء ، ولذلك نجد الإمام أبا حنيفـة يعتبر الوتر واجـباً [1] ، فقال: إن صلاة العشاء فرض ، وصلاة الوتر واجب ؛ وهناك فرق بين الفرض والواجب [2] .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك مباشرة:

﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ [3] .. (١١٤) ﴾ [هود]

وهذا التعقيب يضع الصلاة فى قـمة الحسنات ، وقد أوضح رسول الله ﷺ هذا بأن قال: « الصلوات الخمس ، والجمعـة إلى الجمعة كفارة لما بينهن ما لم تُغْشَ الكبائر » [4] .

---

(١) قـال الشوكـانى فى نيل الأوطار (٣/ ٣٠) : «ذهب الجـمـهور إلى أن الوتر غـيـر واجب بل سنة، وخالفـهم أبو حنيفـة فقال: إنه واجـب، وروى عنه أنه فرض. قال ابن المنـذر: ولا أعلم أحداً وافق أبا حنيفة فى هذا. ومن الأدلة الدالة على عدم وجوب الوتر ما اتفق عليه الشيخان من حديث طلحة ابن عبـيد الله قال: جاء رجل إلى رسـول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : «خـمس صلوات فى اليوم والليلة. قال: هل علىَّ غيرها؟ قال: لا إلا أن تطوع».

(٢) الفرض: ما ثبت بدليل قـطعى لا شبهة فيه ويـكفر جاحده ويُعذب تاركـه، وهو على نوعين: فرض عين وفرض كـفاية، ففرض العين ما يلزم كل واحـد إقامته، ولا يسقط عن البعض بإقـامة البعض كالإيمـان ونحوه، وفرض الكفـاية ما يلزم جمـيع المسلمـين إقامتـه، ويسقط بإقامـة البعض عن الباقين كالجهاد وصلاة الجنازة. أما الواجب: فهو اسم لما لزم علينا بدليل فيه شبهة كخبر الواحد والقياس والعـام المخصوص والآية المـؤولة كصدقة الفطر والأضـحـية. [التعريفـات للجرجانى - صفحات ١٤٤ ، ٢٢٢].

(٣) ذكر القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٤٣٠) أن سـبب نزول هذه الآية أن رجلاً من الأنصار خلا بامرأة فقـبلها وتلذذ بهـا فيـما دون الفرج، روى التـرمذى عن عـبد الله بن مسـعود قـال: جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال: «إنى عالجت امرأة فى أقصى المدينة، وإنى أصبت منها ما دون أن أمسها وأنا هذا فاقْضِ فى مـا شئت. فـقال له عمـر: لقد سـتـرك الله لو سـتـرت على نفسك. فلم يرد عليـه رسـول الله ﷺ شيئاً، فانطلق الرجل فاتبعه رسول الله ﷺ رجلاً فدعاه، فتلا عليه: ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ (١١٤) ﴾ [هود] فقال رجل من القوم: هذا له خاصة؟ قال: «لا بل للناس كافة» قال الترمذى: «حديث حسن صحيح».

(٤) أخرجه مـسلم فى صـحـيحـه (٢٣٣) وأحمد فى مسنده (٢/ ٤٨٤) وابن مـاجه فى سننه (١٠٨٦) من حديث أبى هريرة.

واختلف العلماء فى معنى السيئات والحسنات ، وقال بعضهم: الحسنة هى ما جعل الله سبحانه على عملها ثواباً ، والسيئة هى ما جعل الله على عملها عقاباً.

وأول الحسنات فى الإيمان أن تشهد أن لا إله إلا الله ، وهذه حسنة أذهبت الكفر ؛ لأن الحسنات يذهبن السيئات.

ولذلك قال بعض العلماء: إن المسلم الذى ارتكب معصية أو كبيرة من الكبائر ، لا يخلد فى النار ؛ لأنه إذا كانت حسنة الإيمان قد أذهبت سيئة الكفر ، أفلا تذهب ما دون الكفر ؟.

وهكذا يخفّف العقاب على المسلم فينال عقابه من النار ، ولكنه لا يخلد فيها ؛ لأننا لا يمكن أن نساوى بين من آمن بالله ومن لم يؤمن بالله.

والإيمان بالله هو أكبر حسنة ، وهذه الحسنة تذهب الكفر ، ومن باب أولى أن تذهب ما دون الكفر.

وتساءل بعض العلماء: هل الفرائض هى الحسنات التى تذهب السيئات؟

وأجاب بعضهم: هناك أحاديث صحيحة قد وردت عن رسول الله ﷺ عن حسنات فى غير الفرائض ، ألم يقل رسول الله ﷺ أن صوم يوم عرفة إلى صوم يوم عرفة يذهب السيئات [1].

ألم يقل رسول الله ﷺ أن الإنسان الذى يستقبل نعمة الله بقوله: الحمد لله الذى رزقنيه من غير حولٍ [2] منى ولا قوة ، والحمد لله الذى

---

(١) عن قتادة بن النعمان قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من صام يوم عرفة غفر له سنة أمامه وسنة بعده».

(٢) الحول: الحذق ، وجودة النظر ، والقدرة على دقة التصرف فى الأمور. [المعجم الوسيط : مادة (حول)].

كسانى من غير حولٍ منى ولا قوة [1]. وهذا القول يكفّر السيئات.

ألم يقل ﷺ إنك إذا قلت: سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم [2] ؛ فهذا القول كفارة [3]؟

إذن: فالحسنات مطلقة سواء أكانت فرضاً أم غير فرضٍ ، وهى تذهب السيئات . والسيئة هى عمل توعد الله - سبحانه - من يفعلهُ بالعقوبة.

وتساءل أيضاً بعض العلماء: إن السيئة عمل ، والعمل إذا وقع يُرفع ويُسجَّل ، فكيف تُذهبها الحسنة ؟

وأجابوا: إن ذهاب السيئة يكون إما عن طريق مَنْ يحفظ العمل ، ويكتبه عليك ، فيمحوه الله من كتاب سيئاتك ، أو أن يعفو الله سبحانه وتعالى عنك ؛ فلا يعاقبك عليه ، أو يكون ذهاب العمل فى ذاته فلا يتأتى ، وما وقع لا يرتفع ؛ أو يحفظها الله إن وقعت ؛ لأنه هو سبحانه القائل:

---

(١) عن معاذ بن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «من أكل طعاماً ثم قال: الحمد لله الذى أطعمنى هذا الطعام ورزقنيه من غير حول منى ولا قوة غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ومن لبس ثوباً فقال: الحمد لله الذى كسانى هذا الثوب ورزقنيه من غير حول منى ولا قوة غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر» أخرجه أبو داود فى سننه (٤٠٢٣) وكذا ابن ماجه (٣٢٨٥).

(٢) عن أبى الدرداء قال قال رسول الله ﷺ : «قل: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله، فإنهن الباقيات الصالحات، وهن يحططن الخطايا كما تحط الشجرة ورقها وهى من كنوز الجنة».

قال المنذرى فى الترغيب (٢/٢٤٨) : «رواه الطبرانى بإسنادين أصلحهما فيه عمر بن راشد، وبقية رواته محتج بهم فى الصحيح ولا بأس بهذا الإسناد فى المتابعات ورواه ابن ماجه من طريق عمر أيضاً باختصار».

(٣) الكفارة: ما شرعه الله من القربات لمحو الذنوب وغفرانها، مثل كفارة اليمين، قال تعالى: ﴿فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ .. (٨٩)﴾ [المائدة] [القاموس القويم : مادة (كفر)]. وقال ابن منظور فى اللسان (مادة : كفر): «تكرر ذكر الكفارة فى الحديث، وهى عبارة عن الفعلة والخصلة التى من شأنها أن تكفر الخطيئة أى : تمحوها وتسترها».

﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ[1] (١٨)﴾ [ق]

ويقول سبحانه:

﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (١٠) كِرَامًا كَاتِبِينَ (١١)﴾ [الانفطار]

وهكذا يكون إذهاب السيئة، إما محوها من الكتاب، وإما أن تظل في الكتاب، ويذهب الله سبحانه عقوبتها بالمغفرة.

والحق سبحانه يقول:

﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ[2] إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ .. (٣٢)﴾ [النجم]

واجتناب الكبائر لا يمنع من وقوع الصغائر.

والحق سبحانه يقول:

﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ[3] .. (٤٥)﴾ [العنكبوت]

---

(١) لفظ النواة يلفظها لفظاً: رماها. ولفظ الكلمة: قالها. قال تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (١٨)﴾ [ق] أي: كل كلمة يتكلمها الإنسان تسجل عليه بواسطة ملك عتيد، وعتيد: أي: حاضر مستعد لإثبات هذا القول في كتاب الحسنات والسيئات. [القاموس القويم: مادة (لفظ، عتد)].

(٢) اللمم: صغائر الذنوب. قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ .. (٣٢)﴾ [النجم]. [القاموس القويم: مادة (لمم)].

قال العوفي عن ابن عباس في قوله: ﴿إِلَّا اللَّمَمَ .. (٣٢)﴾ [النجم]: «كل شيء بين الحدين: حد الدنيا وحد الآخرة تكفره الصلوات فهو اللمم، وهو دون كل موجب، فأما حد الدنيا فكل حد فرض الله عقوبته في الدنيا، وأما حد الآخرة فكل شيء ختمه الله بالنار وأخَّر عقوبته إلى الآخرة» ذكره ابن كثير في تفسيره (٤/٢٥٦).

(٣) الفحشاء: الفحش، وهو العمل القبيح المنكر. قال تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ .. (٢٦٨)﴾ [البقرة] أي: يأمركم بالبخل أو فعل القبيح عامة، ومنه البخل. والفواحش هي الأمور القبيحة المنكرة. [القاموس القويم: مادة (فحش)].

والمنكر: ما يستقبحه الشرع الشريف، وما تستنكره العقول السليمة. قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ .. (١٠٤)﴾ [آل عمران] [القاموس القويم: مادة (نكر)].

وحين ننظر إلى مواقيت الصلاة ، نجدها خمسة مواقيت ، فمن تعلَّق قلبه بالصلاة ، إنما ينشغل قلبه طوال وقت حركته بإقامة الصلاة ، ثم يأتي وقت الليل لينام ، وكل من يرتكب معصية سينشغل فكره بها لمدة ، ولو لم يأت له وقت صلاة لأحسَّ بالضياع ، أما إذا ما جاء وقت الصلاة ، فقلبه يتجه لله سبحانه طالباً المغفرة.

وإن وقعت منه المعصية مرة ، فقد لا تقع مرة أخرى ، أو أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر في وقت الاستعداد لها ، فمن جلس لينمَّ على غيره ، أو يظلم الناس ، إذا ما سمع أذان الصلاة وقام وتوضأ ؛ فقد رحم الناس في وقت وضوئه ووقت صلاته ووقت ختمه للصلاة.

وهناك أعمال كثيرة من الفروض والحسنات وهي تمحو السيئات ، وعلى المسلم أن ينشغل بزيادة الحسنات ، وألا ينشغل بمحو السيئات؛ لأن الحسنة الواحدة بعشرة أمثالها وقد يضاعفها الله سبحانه ، أما السيئة فإنما تكتب واحدة [1].

ويُنهي الحق سبحانه هذه الآية الكريمة بقوله:

﴿ .. ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾ [هود]

أي: أن إقامة الصلاة طرفي النهار ، وزلفاً من الليل هي حسنات تذهب السيئات ؛ وفي ذلك ذكرى وتنبيه للنفس إلى شيء غُفل عنه ، أي: أن هذا الشيء كان موجوداً من قبل ، ولكن جاءت الغفلة لتنسيه ، والإخبار الأول أزال الجهل بهذا الشيء ، والإخبار الثاني يذكِّرك

---

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : «من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، ومن هم بحسنة فعملها كتبت له عشراً إلى سبعمائة ضعف، ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب وإن عملها كتبت» أخرجه مسلم في صحيحه (١٣٠) كتاب الإيمان.

بالحكم ؛ لأن آفة الإنسان أن الأمور التى تمر به من المرائى والمدركات ، تتوالى وتصير الأشياء التى فى بؤرة [1] الشعور إلى حاشية الشعور ، فيغفل الإنسان عما صار فى حاشية الشعور ، ولا بد من مجيء معنى جديد ليذكِّر بما غاب فى حاشية الشعور.

ومثال ذلك: إنك إذا ألقيت حجراً فى بحر ، فهذا الحجر يستقر فى بؤرة تصنع حولها دوائر من المياه ، وتذهب هذه الدوائر إلى أن تختفى من رؤية الإنسان ، ودليل ذلك أنك قد تتذكر أحداثاً مرت عليك من عشرين عاماً أو أكثر ، هذه الأحداث كانت موجودة فى حاشية الشعور ، ثم جاء لك ما ينبهك إليها.

والمخ كآلة التصوير الفوتوغرافية يلتقط أحياناً من مرة واحدة ، وأحياناً من مرتين ، أو أكثر ، والالتقاط من أول مرة إنما يتم لأن المخ فى تلك اللحظة كان خالياً من الخواطر.

ونحن نجد أن من فقدوا أبصارهم إنما ينعم الله سبحانه عليهم بنعمة أخرى ، هى قدرتهم الكبيرة على حفظ العلم ؛ لأنه حين يسمع الكفيف العلم لا تشغله الخواطر المرئية التى تسرق انتباه بؤرة الشعور ، أما المبصر ، فقد تسرق بؤرة شعوره ما يمر أمامه ، فيسمع العلم لأكثر من مرة إلى أن يصادف العلم بؤرة الشعور خالية فيستقر فيها.

وهكذا تفعل الذكرى ؛ لأنها تستدعى ما فى حاشية الشعور إلى بؤرة الشعور ، فإذا انشغلت عن طاعة وذهبت إلى معصية ، فالذكرى توضح لك آفاق المسئولية التى تتبع المعصية ، وهى العقاب.

---

(١) بؤرة الشيء: مركزه، أو وسطه. وبؤرة الشعور: مركزه، أي: داخل مركز الإحساس والشعور (الإدراك) فى المخ. والبؤرة فى اللغة: الحفرة، وهى مأخوذة من البئر. أما البؤرة فى «علم الطبيعة» فهى نقطة تتلاقى أو تتفرق عندها الأشعة الضوئية أو الحرارية أو الصوتية، إذا لم يعترض دونها شيء. [المعجم الوسيط : مادة (بأر) بتصرف وإضافة].

ولذلك يقال: «لا خير فى خيرٍ بعده النار ، ولا شر فى شر بعده الجنة».

والحق سبحانه يقول هنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها:

﴿ وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ .. (١١٤) ﴾ [هود]

وأنت حين تنظر إلى أركان الإسلام ، ستجد أنك تشهد ألا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله مرة واحدة فى العمر ، والركن الثانى ، وهو الصلاة، وهو ركن لا يسقط أبداً ، فهى كل يوم خمس مرات ، فيها تنطق بالشهادة ، وتزكّى ببعض الوقت ليبارك لك الله - سبحانه وتعالى - فيما بقى لك من وقتٍ ، وفيها تصوم عن الطعام والشراب وكل ما يفسد الصيام ، وأنت تتجه لحظة قيام الصلاة إلى البيت الحرام.

ففى الصلاة تتضح العبادات الأخرى ، ففيها من أركان الإسلام الخمس.

ولذلك لا تسقط الصلاة أبداً ؛ لأنك إن لم تستطع الصلاة واقفاً ؛ فَلَكَ أن تصلى قاعداً ، وإن لم تكن تستطيع الحركة فَلَكَ أن تحرك رموش عينيك ، وأنت تصلى[1].

وهكذا تجد فى الصلاة كل أركان الدين ، ولأهميتها نجد أنها تبقى مع الإنسان إلى آخر رمقٍ فى حياته ، وهى قد أخذت أهميتها فى التشريع على قدر أهميتها فى التكليف ، وكل تكاليف الإسلام قد جاءت بواسطة الوحى إلا الصلاة ، فقد جاءت مباشرة من الله تعالى ، فقد استدعى الله

---

(١) عن عمران بن حصين قال: كانت بى بواسير، فسألت النبى ﷺ فقال: «صلِّ قائماً، فإن لم تستطع فقاعداً، فإن لم تستطع فعلى جنب». أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٤/٤٢٦) والبخارى فى صحيحه (٢/٥٨٤ ، ٥٨٦ - الفتح). قال الشيخ سيد سابق فى فقه السنة (١/١٠١) : «من عجز عن القيام فى الفرض صلى على حسب قدرته، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها، وله أجره كاملاً غير منقوص».

سبحانه رسوله ﷺ إليه ليفرض عليه الصلاة[1] وهى تحية لأمة محمد ﷺ؛ نظراً لأنها شرعت فى قرب محمد ﷺ من ربه سبحانه وتعالى.

لذلك جعل الحق سبحانه الصلاة المفروضة فى القرب وسيلة لقرب أمة رسوله ﷺ جميعاً ؛ ولذلك فهى الباقية.

ويُحكَى أن الإمام علياً - كرم الله وجهه ورضى عنه - أقبل على قوم وقال لهم: أى آيةٍ فى كتاب الله أرْجَى عندكم ؟

أى: ما هى الآية التى تعطى الرجاء والطمأنينة والبشرى بأن الحق سبحانه يقبلنا ويغفر لنا ويرحمنا ، فقال بعضهم: هى قول الحق سبحانه:

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ .. (١١٦) ﴾ [النساء]

فقال الإمام على: حسنة ، وليست إياها. أى: أنها آية تحقق ما طلبه، لكنها ليست الآية التى يعنيها .

فقال بعض القوم: إنها قول الحق سبحانه:

﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُوراً رَّحِيماً (١١٠) ﴾ [النساء]

فكرر الإمام على: حسنة ، وليست إياها.

فقال بعض القوم: هى قول الحق سبحانه:

---

(١) وذلك فى ليلة الإسراء والمعراج عند سدرة المنتهى، ذكره البخارى فى أول كتاب الصلاة (١/٤٥٨) فيه: قال النبى ﷺ : «ثم عرج بى حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف الأقلام، ففرض الله على أمتى خمسين صلاة، فرجعت بذلك حتى مررت على موسى، فقال: ما فرض الله لك على أمتك؟ قلت: فرض خمسين صلاة. قال: فارجع إلى ربك، فإن أمتك لا تطيق ذلك. فراجعنى فوضع شطرها. فرجعت إلى موسى قلت: وضع شطرها. فقال: راجع ربك، فإن أمتك لا تطيق ذلك. فراجعته فقال: هى خمس وهى خمسون، لا يبدل القول لدى. فرجعت إلى موسى فقال: راجع ربك. فقلت: استحييت من ربى «حديث ٣٤٩».

﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا [1] عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا [2] مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا .. (٥٣) ﴾ [الزمر]

فقال الإمام على: حسنة ، وليست إياها.

فقال بعضهم: هى قوله سبحانه:

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً [3] أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ ..(١٣٥) ﴾ [آل عمران]

فقال الإمام على: حسنة ، وليست إياها.

وصمت القوم وأحجموا ، فقال الإمام على كرَّم الله وجهه: ما بالكم يا معشر المسلمين؟ وكأنه يسألهم: لماذا سكتم ؟.. فقالوا: لا شىء.

---

(١) أسرف: جاوز القصد والاعتدال، ويكون الإسراف فى المال وفى غيره. قال تعالى: ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ .. (٥٣) ﴾ [الزمر] أى: جاوزوا القصد والاعتدال فى أمور كثيرة، فأكثروا الذنوب على أنفسهم. وقال تعالى: ﴿ وَلا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (١٥١) ﴾ [الشعراء] والإسراف يكون فى أمور كثيرة، لا فى إنفاق المال وحده. ومن حكم الصالحين: «لا إسراف فى الخير، ولا خير فى الإسراف». [القاموس القويم : مادة (سرف)] بتصرف.

(٢) قنط يقنط قنوطاً: انقطع أمله فى الخير، أو يئس منه، فهو قانط. وقرأ حفص بفتح النون فى الماضى فى قول الله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا .. (٢٨) ﴾ [الشورى] وفى قوله تعالى: ﴿ ..فَلا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ (٥٥) ﴾ [الحجر] ، وقرىء «من القنطين» - بكسر النون - كما قرىء بالحركات الثلاث فى النون فى قوله تعالى: ﴿ .. وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ (٥٦) ﴾ [الحجر]. وقنوط : صيغة مبالغة. قال تعالى: ﴿ .. وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ (٤٩) ﴾ [فصلت] أى: شديد اليأس معدوم الأمان. [القاموس القويم : مادة (قنط)] بتصرف.

(٣) فَحَشَ، وفَحُشَ، فحشاً، فهو فاحش: أى: جاوز الحد، وفعل القبيح. والفاحشة: الفعلة القبيحة. قال تعالى: ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً .. (٢٨) ﴾ [الأعراف] وقال تعالى: ﴿ وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ .. (١٥) ﴾ [النساء] أى: الزنا. وقال تعالى: ﴿ وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ .. (١٥١) ﴾ [الأنعام] أى: لا تقربوا الأمور القبيحة المنكرة. [القاموس القويم : مادة (فحش)].

وهكذا جعل الإمام على التشويق أساساً يبنى عليه ما سوف يقول لهم: واشرأبت [١] أعناقهم ، وأرهفوا السمع ، فقال لهم الإمام على: سمعت حبيبى رسول الله ﷺ يقول: أَرْجَى آية فى كتاب الله هى قول الحق سبحانه:

﴿ وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ (١١٤) ﴾ [هود]

يا على إن أحدكم ليقوم من وضوئه فتتساقط عن جوارحه ذنوبه ، فإذا أقبل على الله بوجهه وقلبه لا ينفتل [٢]– أى: لا يلتفت – إلا وقد غفر الله له كل ذنوبه كيوم ولدته أمه ، فإذا أحدث شيئاً بين الصلاتين فله ذلك ، ثم عدَّ الصلوات الخمس واحدة واحدة ، فقال: بين الصبح والظهر ، وبين الظهر والعصر ، وبين العصر والمغرب ، وبين المغرب والعشاء ، وبين العشاء والفجر ، ثم قال ﷺ : «يا على إنما الصلوات الخمس لأمتى كنهر جارٍ بباب أحدكم ، أو لو كان على جسد واحد منكم درن [٣] ثم اغتسلَ فى البحر ، أيبقى على جسده شىء من الدرن؟ قال: فذلكم والله الصلوات لأمتى » .

ولذلك لو نظرنا إلى الأعمال لوجدنا كل عمل له مجاله فى عمره إلا مجال الصلاة ، فمجالها كل عمر الإنسان.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١١٥) ﴾

---

(١) اشرأب إليه، أو اشرأب له ، اشرئباباً، وشرئبيبة: مد عنقه، أو ارتفع لينظر. [المعجم الوسيط : مادة (شرأ)].

(٢) انفتل: التوى، وانصرف. ويقال: انفتل عن رأيه، وعن حاجته وانفتل وجهه عنهم. [المعجم الوسيط : مادة (فتل)].

(٣) درن الشىء درناً : وسخ وتلطخ. يقال: درن الثوب. ودرنت يداه بكذا. فهو درن، وأدرن، وهى درناء. وأم درن: الدنيا. [المعجم الوسيط : مادة (درن)].

وجاءت كلمة «اصبر» لتخدم كل عمليات الاستقامة.

وكذلك يقول الحق سبحانه:

﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ [١] عَلَيْهَا .. (١٣٢) ﴾ [طه]

والصبر نوعان: صبر «على» ، وصبر «عن» وفى الطاعات يكون الصبر على مشقة الطاعة ، مثل صبرك على أن تقوم من النوم لتصلى الفجر ، وفى اتقاء المعاصى يكون الصبر عن الشهوات.

وهكذا نعلم أن الصبر على إطلاقه مطلوب فى الأمرين: فى الإيجاب للطاعة ، وفى السلب عن المعصية.

ونحن نعلم أن الجنة حُفَّتْ [٢] بالمكاره ؛ فاصبر على المكاره ، وحُفَّتِ النار بالشهوات ؛ فاصبر عنها [٣].

وافرض أن واحداً يرغب فى أكل اللحم ، ولكنه لا يملك ثمنها ، فهو يصبر عنها ؛ ولا يستدين.

---

(١) اصطبر: على وزن افتعل، ويفيد زيادة الصبر والتحمل. قال تعالى: ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا .. (١٣٢) ﴾ [طه] وقال تعالى: ﴿ فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ .. (٦٥) ﴾ [مريم]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ (٢٧) ﴾ [القمر]. [القاموس القويم : مادة (صبر)] بتصرف.

(٢) حف القوم بالبيت، أو من حوله: أطافوا به وأحدقوا حوله. قال تعالى: ﴿ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ .. (٣٢) ﴾ [الكهف] أى: جعلنا النخل يحيط بالجنتين. [القاموس القويم: مادة (حفف)].

وحف الشىء حفاً وحفافاً: استدار حوله وأحدق به. ويقال: حف الشىء بالشىء، وحوله، ومن حوله. [المعجم الوسيط : مادة (حفف)].

(٣) عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : «حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات» أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٨٢٢) قال النووى فى شرحه: «أما المكاره فيدخل فيها الاجتهاد فى العبادات والمواظبة عليها والصبر على مشاقها وكظم الغيظ والعفو والحلم والصدقة والإحسان إلى المسىء والصبر عن الشهوات. وأما الشهوات التى النار محفوفة بها فالظاهر أنها الشهوات المحرمة كالخمر والزنا والنظر إلى الأجنبية والغيبة واستعمال الملاهى ونحو ذلك. وأما الشهوات المباحة فلا تدخل فى هذه، لكن يكره الإكثار منها مخافة أن يجر إلى الشهوات المحرمة أو يقسى القلب أو يشغل عن الطاعات أو يحوج إلى الاعتناء بتحصيل الدنيا للصرف فيها».

ولذلك يقول الزهاد: ليس هناك شيء اسمه غلاء ، ولكن هناك شيء اسمه رخص النفس.

ولذلك نجد من يقول: إذا غلا شيء عليّ تركته، وسيكون أرخص ما يكون إذا غلا.

والحق سبحانه يقول:

﴿ وَاصْبِرْ[1] عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ .. (١٧) ﴾ [لقمان]

وهنا يقول الحق سبحانه:

﴿ وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١١٥) ﴾ [هود]

وهم الذين أدخلوا أنفسهم في مقام الإحسان ، وهو أن يلزم الواحد منهم نفسه بجنس ما فرض الله فوق ما فرض الله ، من صلاة أو صيام ، أو زكاة ، أو حج لبيت الله ؛ لأن العبادة ليست اقتراحاً من عابد لمعبود ، بل المعبود هو الذي يحدد ما يقربك إليه.

وحاول ألاَّ تدخل في مقام الإحسان نَذْراً[2]؛ لأنه قد يشق عليك أن تقوم بما نذرته ، واجعل زمان الاختيار والتطوع في يدك ؛ حتى لا تدخل مع الله في ودٍّ إحساني ثم تفتر عنه ، وكأنك - والعياذ بالله -

(١) والصبر إما أن يكون على المأمورات، وهي الطاعة. وإما صبر على المحذورات، وهي النواهي. وإما صبر على المقدورات، وهذا الصبر على القضاء والقدر فإذا تحققت الثلاثة كنت من أهل الفلاح، مصداقاً لقول الحق : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٢٠٠) ﴾ [آل عمران]

(٢) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا تنذروا فإن النذر لا يغني من القدر شيئاً، وإنما يستخرج به من البخيل». أخرجه مسلم في صحيحه (١٦٤٠). والترمذي في سننه (١٥٣٨) وكذا النسائي (١٧/٧). قال النووي في شرحه: «معناه أنه لا يأتي بهذه القربة تطوعاً محضاً مبتدأ وإنما يأتي بها في مقابلة شفاء المريض وغيره مما تعلق النذر عليه».

قد جرَّبت مودة الله تعالى ، فلم تجده أهلاً لها ، وفي هذا طغيان منك.

وإذا رأيت إشراقات فيوضات على مَنْ دخل مقام الإحسان فلا تنكرها عليه ، وإلا لسويت بين من وقف عند ما فُرِضَ عليه ، وبين من تجاوز ما فُرِضَ عليه من جنس ما فَرَضَ الله.

وجرب ذلك في نفسك ، والتزم أمر الله باحترام مواقيت الصلاة ، وقم لتصلي الفجر في المسجد ، ثم احرص على أن تتقن عملك ، وحين يجئ الظهر قم إلى الصلاة في المسجد ، وحاول أن تزيد من ركعات السنة ، وستجد أن كثافة الظلمانية قد رَقَّتْ في أعماقك ، وامتلأتَ بإشراقات نورانية تفوق إدراكات الحواس ، ولذلك لا تستكثر على مَنْ يرتاض [1]هذه الرياضة الروحية، حين تجد الحق سبحانه قد أنار بصيرته بتجليات من وسائل إدراك وشفافية.

ولذلك لا نجد واحداً من أهل النور والإشراق يدَّعي ما ليس له ، والواحد منهم قد يعلم أشياء عن إنسان آخر غير ملتزم ، ولا يعلنها له؛ لأن الله سبحانه وتعالى قد خَصَّه بأشياء وصفات لا يجب أن يضعها موضع التباهي والمراءاة.

وحين عرض الحق سبحانه هذه القضية أراد أن يضع حدوداً للمرتاض ولغير المرتاض ، في قصة موسى عليه السلام حينما وجد موسى وفتاه عبداً صالحاً ، ووصف الحق سبحانه العبد الصالح بقوله تعالى:

---

(١) راضه روضاً ورياضاً ورياضة: ذلَّله. يقال: راض المهر، وراض نفسه بالتقوى، وراض القوافي الصعبة. وارتاض: صار مروضاً. يقال: ارتاض المهر: ذل. وارتاضت القوافي: ذللت. والرياضة - عند الصوفية - : تهذيب الأخلاق النفسية بملازمة العبادات، والتخلي عن الشهوات. [المعجم الوسيط : مادة (روض)] بتصرف.

﴿ .. عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا (١) عِلْمًا (٦٥) ﴾ [الكهف]

وقال العبد الصالح لموسى عليه السلام:

﴿ .. إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٦٧) ﴾ [الكهف]

وبيّن العبد الصالح لموسى – بمنتهى الأدب – عذره في عدم الصبر، وقال له:

﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا (٢) (٦٨) ﴾ [الكهف]

وردّ موسى عليه السلام:

﴿ .. سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا (٦٩) ﴾ [الكهف]

فقال العبد الصالح:

﴿ .. فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا (٣) (٧٠) ﴾ [الكهف]

---

(١) لدن: ظرف مكان، أو ظرف زمان، بمعنى (عند) مبنى على السكون، وإذا أضيف إلى ياء المتكلم فصلت بينهما نون الوقائية وأدغمت فى نونها مثل قوله تعالى: ﴿ .. قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا (٧٦) ﴾ [الكهف] ، وجاءت مضافة إلى ضمير المخاطب في قوله تعالى: ﴿ وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً .. (٨) ﴾ [آل عمران] ، وإلى ضمير المتكلمين (نا) فى قوله تعالى: ﴿ .. وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا (٦٥) ﴾ [الكهف] ، وتضاف إلى ضمير الغائب كقوله تعالى: ﴿ لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ .. (٢) ﴾ [الكهف] [القاموس القويم : مادة (لدن)].

(٢) خبر الأمر، وخبر بالأمر، مثل: علمه، وعلم به – وزناً ومعنى – فهو به خبير. قال تعالى: ﴿ .. فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا (٥٩) ﴾ [الفرقان] . وقال تعالى: ﴿ سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ .. (٧) ﴾ [النمل] أى: بنبأ. وقال تعالى: ﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا (٦٨) ﴾ [الكهف] أى : علماً. [القاموس القويم : مادة (خبر)].

(٣) الذكر : القرآن، والكتب المنزلة كلها، قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩) ﴾ [الحجر] هو القرآن الكريم. وقال تعالى: ﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا (٢) ﴾ [مريم] أى: قصة رحمة الله لعبده زكريا. وقال تعالى: ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (٤) ﴾ [الشرح] أى: شرفك وحديث الناس عنك بالخير. [القاموس القويم : مادة (ذكر)].

وجاء فى [مختصر تفسير الطبرى : ص ٣٣٧] فى تفسير هذه الآية : ﴿ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ..(٧٠) ﴾ [الكهف]: يقول: «حتى أذكر أنا لك ما ترى من الأفعال التى أفعلها وتستنكرها أنت، وأبين لك شأنها، وأبتدئك الخبر عنها».

ولكن الأحداث توالت ؛ فلم يصبر موسى ؛ فقال له العبد الصالح:

﴿هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ..(٧٨)﴾ [الكهف]

وهذا حكم أزلي بأن المرتاض للرياضة الروحية ، ودخل مقام الإحسان لا يمكن أن يلتقي مع غير المرتاض على ذلك، وليلزم غير المرتاض الأدب مثلما يلتزم المرتاض الأدب، ويقدم العذر في أن ينكر عليه غير المرتاض معرفة ما لا يعرفه.

ولو أن المرتاض قد عذر غير المرتاض ، ولو أن غير المرتاض تأدب مع المرتاض لاستقرَّ ميزان الكون.

والحق سبحانه يبيِّن لنا مقام الإحسان وأجر المحسنين، في قوله تعالى:

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦)﴾ [الذاريات]

ويبيِّن الحق سبحانه لنا مدارج الإحسان ، وأنها من جنس ما فرض الله تعالى ، في قوله سبحانه:

﴿كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ [1] (١٧)﴾ [الذاريات]

والحق سبحانه لم يكلف في الإسلام ألا يهجع المسلم إلا قليلاً من الليل ، وللمسلم أن يصلي العشاء ، وينام إلى الفجر.

وتستمر مدارج الإحسان، فيقول الحق سبحانه:

---

(١) هجع يهجع هجوعاً : نام ليلاً. قال تعالى: ﴿كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧)﴾ [الذاريات] . [القاموس القويم : مادة (هجع)].

﴿ وَبِالأَسْحَارِ [1] هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) ﴾ [الذاريات]

والحق سبحانه لم يكلِّف المسلم بذلك ، ولكن الذى يرغب فى الارتقاء إلى مقام الإحسان يفعل ذلك.

ويقول الحق سبحانه أيضاً:

﴿ وَفِى أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ [2] (١٩) ﴾ [الذاريات]

ولم يحدد الحق سبحانه هنا هذا الحق بأنه حق معلوم ، بل جعله حقاً غير معلوم أو محدد ، والله سبحانه لم يفرض على المسلم إلا الزكاة ، ولكن من يرغب فى مقام الإحسان فهو يبذل من ماله للسائل والمحروم.

وهكذا يدخل المؤمن إلى مقام الإحسان ، ليودَّ الحق سبحانه.

ولله المثل الأعلى: نحن نجد الإنسان حين يوده غيره ؛ فهو يعطيه من خصوصياته ، ويفيض عليه من مواهبه الفائضة ، علماً ، أو مالاً ، فما بالنا بمن يدخل فى ودٍّ مع الله سبحانه وتعالى .

ويقولُ الحق سبحانه بعد ذلك:

---

(١) السَّحر - بفتح السين والحاء - : الجزء الأخير من الليل إلى مطلع الفجر. وجمعه: أسحار. قال تعالى: ﴿ .. وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ (١٧) ﴾ [آل عمران] ، وقال تعالى: ﴿ وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) ﴾ [الذاريات] [القاموس القويم : مادة (سحر)].

(٢) السائل: الفقير، أو من يسأل عن شىء. قال تعالى:﴿ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ (١٠) ﴾ [الضحى] يحتمل المعنيين : السائل الذى يطلب الصدقة، والسائل المستفهم عن شىء. وقوله تعالى:﴿ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ (٦) ﴾ [الأعراف] أى: لنحاسبن الناس والرسل يوم القيامة. [القاموس القويم : مادة (سأل)].

والمحروم: الممنوع من الخير. قال تعالى: ﴿ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٦٧) ﴾ [الواقعة] أى: حُرمنا ثمر الحديقة وحُرمنا الخير كله. والحرمان: المنع. والمحروم أيضاً : اسم مفعول ويطلق على الفقير. وقال تعالى: ﴿ وَفِى أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩) ﴾ [الذاريات] [القاموس القويم : مادة (حرم)].

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ(1) يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا(2) فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ (116)﴾

وكلمة «لولا» هنا تحضيضية ، والتحضيض إنما يكون حثاً لفعل لم يأت زمنه ، فإن كان الزمن قد انتهى ولا يمكن استدراك الفعل فيه، تكون «لولا» للتحسر والتأسف.

وفي سورة يونس يقول الحق سبحانه:

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ .. (98)﴾ [يونس]

وذكَّرهم بالآيات. ونحن قد علمنا أن «لولا» لها استعمالان في اللغة ، فهي إن دخلت على جملة اسمية ، فهي تدل على امتناع لوجود ، كقول إنسان لآخر: «لولا أن أباك فلاناً لضربتك على ما أذنبت» وتسمى «لولا» في هذه الحالة «حرف امتناع لوجود».

وإذا دخلت «لولا» على جملة فعلية ، فهي أداة تحضيض ، وتحميس، وحث المخاطب على أن يفعل شيئاً، مثلما تشجِّع طالباً على المذاكرة ، فتقول له: «لولا ذاكرت بجد واجتهاد في العام الماضي لما نجحت ووصلت إلى هذه السنة الدراسية».

---

(1) أولو البقية : أصحاب التمييز والعقل والنظر في العواقب وأصحاب الفضل الباقي والخير الثابت. قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ .. (116)﴾ [هود] ، والبقية : الباقية والشيء الباقي. [القاموس القويم : مادة (بقى)].

(2) ترف ترفاً : تنعمَّ . وأترفه الله : نعَّمه وأعطاه ما يشتهي . قال تعالى: ﴿وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. (33)﴾ [المؤمنون] ، وقال تعالى: ﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ .. (116)﴾ [هود] أي: جروا وراء شهواتهم وتمادوا في الترف فأبطرهم وأطغاهم. [القاموس القويم : مادة (ترف)].

وفى هذا تحميس له على بذل مزيد من الجهد ، أما إذا قلت لراسب: «لولا ذاكرت لما رسبت» فهذا توبيخ وتأسيف له على ما فات ، وشحن طاقته لما هو آت ؛ لأن الزمن قد فات وانتهى وقت المذاكرة ؛ لذلك تكون «لولا» - هنا - للتقريع والتوبيخ [١].

والحق سبحانه وتعالى يرشدنا إلى أن بقية الأشياء هى التى ثبتت أمام أحداث الزمن ، فأحداث الزمن تأتى لتطوح بالشىء التافه أولاً ، ثم بما دونه ثم بما دونه ، ويبقى الشىء القوى ؛ لأنه ثابت على أحداث الزمن ؛ وبقية الأشياء دائماً خيرها.

والحق سبحانه قد بيَّن لنا أنه قد أهلك الأمم التى سبقت ؛ لأنه لم توجد فئة منهم تنهى عن الفساد فى الأرض ، وجاء الإهلاك لامتناع من يقاوم الفساد بالأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر.

---

(١) لولا : حرف شرط لا يعمل، ويدل على امتناع الجواب لوجود الشرط، وجملة الشرط (اسمية) ويحذف الخبر وجوباً إذا كان كوناً عاماً، وإذا وليها مضمر يكون ضمير رفع منفصل مثل :﴿ .. لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [سبأ] ، وجملة الجواب (فعلية) وتقترن باللام إذا كانت مثبتة فى الغالب، وتتجرد منها إذا كانت منفية، قال تعالى:﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا .. ﴿٢١﴾ ﴾ [النور] تجرد الجواب من اللام لأنه منفى بالحرف (ما) ، وقد يحذف جواب الشرط بعد «لولا» إذا دل عليه دليل كقوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ ﴾ [النور] ، وتقدير الجواب : «لمسَّكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم» ، كما وضحته الآية التى بعدها فى نفس السورة.

وتستعمل «لولا» أداة عرض وتحضيض مثل (هلاَّ) فتختص بالدخول على المضارع كقوله تعالى: ﴿ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ .. ﴿٤٦﴾ ﴾ [النمل] ، وتدخل على ماضٍ فى تأويل المضارع كقوله تعالى:﴿ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ .. ﴿١٠﴾ ﴾ [المنافقون] أى: لولا تؤخرنى - وتستعمل «لولا» للتوبيخ والتنديم فتختص بالماضى، كقوله تعالى: ﴿ لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ .. ﴿١٣﴾ ﴾ [النور] وقوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا .. ﴿١٦﴾ ﴾ [النور] وقوله تعالى:﴿ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا .. ﴿٤٣﴾ ﴾ [الأنعام] ولولا هنا بمعنى (هلاَّ) للتوبيخ، ويؤيده قراءة : «هلاَّ إذ جاءهم بأسنا». [القاموس القويم : مادة (لولا)].

وضرب الحق سبحانه لنا المثل بالبقية فى كل شىء ، وأنها هى التى تبقى أمام الأحداث ، ففى قصة شعيب عليه السلام يقول الحق سبحانه:

﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ (٨٤) وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٨٥) بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ .. (٨٦) ﴾ [هود]

ومعنى ذلك أن نقص المكيال أو الميزان قد يزيد التاجر ما عنده ، ولكنه لا يلتفت إلى ما هو مدخور.

ولذلك قال شعيب عليه السلام:

﴿ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ [1] وَلَا تَبْخَسُوا [2] النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ .. (٨٥) ﴾ [هود]

فأنت إن نظرت إلى شىء قد ذهب ، فامتلك القدرة على أن تحقق فيه بالفهم ، لتجده مدخراً لك باقياً.

ولنا المثل فى موقفه رسول الله ﷺ مع أم المؤمنين عائشة - رضى الله عنها - حينما سألها عن شاة أهديت له ، وكانت تعرف أن

---

(١) اقسط : عدل، وأزال الظلم أو الجور. قال تعالى: ﴿ .. وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٩) ﴾ [الحجرات] واستعمل القرآن الكريم كلمة (القسط) - بكسر القاف وسكون السين - بمعنى العدل كما فى قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ ..(٢٩) ﴾ [الأعراف] أى: بالعدل.
وقال تعالى : ﴿ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ .. (٩) ﴾ [الرحمن] أى: بالعدل.
وقال تعالى: ﴿ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ .. (٨٥) ﴾ [هود] أى: بالعدل. [القاموس القويم : مادة (قسط)].

(٢) بخسه حقه بخساً : نقصه حقه ولم يوفه. قال تعالى:﴿ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ .. (٨٥) ﴾ [الأعراف]. [القاموس القويم : مادة (بخس)].

رسول الله ﷺ يحب من الشاة كتفها [1]، فتصدقت بكل الشاة إلا جزءاً من كتفها ، فلمَّا سألها: ما فعلت بالشاة ؟ قالت: ذهبت كلها إلا كتفها.

هكذا نظرت عائشة - رضى الله عنهـا - هذا المنظور الواقعى ؛ بأن الباقى من الشاة هو كتفها فقط ، وأنهـا تصدقت بباقى الشاة ، ويلفتها رسول الله ﷺ لفتة إيمان ويقين ، ويقول لها: «بقى كلها إلا كتفها» [2].

هكذا نظر رسول الله ﷺ إلى ما بقى من الشاة من خير.

ويؤيد ذلك حديث قالهﷺ: «وهل لـك يابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأمضيت » [3].

ويلفتنا القرآن الكريم إلى المنظور ، وإلى المدخور ، فيقول الحق سبحانه:

﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ [4] الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا .. (٤٦) ﴾ [الكهف]

ويصف الحق سبحانه هذا المدخور بقوله:

---

(١) أخرج أبو الشيخ فى «أخلاق النبى» (ﷺ) (ص٢٠١) عن ابن عباس «كان أحب اللحم إلى رسول الله ﷺ الكتف». وأخرج البخارى فى صحيحه (٤٧١٢) عن أبى هريرة قال: «أتى رسول الله ﷺ بلحم ، فرفع إليه الذراع وكانت تعجبه».

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٦/ ٥٠) والترمذى فى سننه (٢٤٧٠) من حديث عائشة . قال الترمذى : « حديث صحيح» .

(٣) أخرجه أحمد فى مسنده (٤/ ٢٤ ، ٢٦) ومسلم فى صحيحه (٢٩٥٨) والترمذى فى سننه (٢٣٤٢) وصححه.

(٤) بقى بقاء: ضد فنى. وباق: اسم فاعل، مؤنثه: باقية. قال تعالى:﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٢٧) ﴾ [الرحمن] وقال تعالى:﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ ..(٩٦) ﴾ [النحل].
والبقية: الباقية، والشىء الباقى. وجمع بقية: بقيات. وجمع باقية: باقيات. قال تعالى:﴿ .. وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا (٤٦) ﴾ [الكهف] أى: الأعمال النافعة الباقية التى يبقى خيرها فى الناس هى خير ثواباً عند الله. [القاموس القويم : مادة (بقى)].

﴿ .. ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً (٤٦) ﴾[1] [الكهف]

وفى آية أخرى يقول سبحانه:

﴿ .. وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا (٧٦) ﴾[2] [مريم]

إذن: لا بد أن تنظر إلى الباقيات فى الأشياء ؛ لأنها هى التى يُعوَّل عليها.

ويلفتنا الحق سبحانه إلى ذلك فى أكثر من موضع من القرآن الكريم ، فيقول تعالى:

﴿ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ (١٧) ﴾ [الأعلى]

ويقول سبحانه:

﴿ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ .. (٦٠) ﴾ [القصص]

إذن: فإياك أن تنظر إلى الذاهب ، ولكن انظر إلى الباقى.

وإذا عضَّت الإنسان الأحداث فى أى شىء ، نجد أن سطحى الإيمان يفزع مما ذهب ، ونجد راسخ الإيمان شاكراً لله تعالى على ما بقى.

وها هو ذا سيدنا عبد الله بن جعفر - رضى الله عنه - حينما

---

(١) أمل يأمل أمْلاً وإملاً وأمَلاً : رجا يرجو. والأمل: الرجاء. قال تعالى: ﴿ .. وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً (٤٦) ﴾ [الكهف] لأنه رجاء عند الله متحقق، لا شك فيه. [القاموس القويم : مادة (أمل)].

(٢) مردٌّ: اسم مكان أو زمان، أو مصدر ميمى. قال تعالى: ﴿ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ .. (٤٣) ﴾ [غافر] أى: رجوعنا إليه -- على المصدرية - أو مرجعنا إليه - على أنه اسم مكان أو زمان. وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ .. (١١) ﴾ [الرعد] أى: لا صرف له ولا إرجاع له - على المصدرية - فهو واقع بهم حتماً. [القاموس القويم : مادة (ردد)]. وجاء فى [كلمات القرآن للشيخ محمد حسنين مخلوف] أن كلمة (خير مردا)، أى: مرجعاً وعاقبة.

جُرحت ساقه جرحاً شديداً، وهو فى الطريق إلى الشام ، ولحظة أن وصل إلى قصر الخلافة قال الأطباء: لابد من التخدير لنقطع الساق المريضة ، فقال: والله ما أحب أن أغفل عن ربى طرفة عين.

وكان هذا القول يعنى أن تجرى له جراحة بتر الساق دون مخدر ، فلمَّا قُطعت الساق ، وأرادوا أن يأخذوها ليدفنوها ؛ لتسبقه إلى الجنة إن شاء الله ؛ قال: ابعثوا بها ، فجاءوا بها إليه ، فأمسكها بيده وقال: اللهم إن كنت قد ابتليت فى عضو ؛ فقد عافيت[1] فى أعضاء .

هكذا نظر المؤمن إلى ما بقى.

وحين يتكلم القرآن الكريم عن مراتب ومراقى الإيمان يقول مرة :

﴿ فَأُوْلَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ ..(٤٠) ﴾ [غافر]

ويقول عن أناس آخرين :

﴿ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ ..(١٥٧) ﴾ [البقرة]

والجنة باقية بإبقاء الله لها ، ولكن رحمة الله باقية ببقاء الله. وهكذا تكون درجة الرحمة أرقى من درجة الجنة.

وهكذا تجد فى كل أمر ما يسمى بالباقيات.

وهنا يقول الحق سبحانه:

---

(١) عفا النبت: كثر وطال، وعفا القوم كثروا، يقول الحق : ﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا ..(٩٥) ﴾ [الأعراف] أى: كثروا وعزوا واغتنوا، والعفو فى المال مازاد عن النفقة، يقول الحق: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ ..(٢١٩) ﴾ [البقرة] وعفا عن الذنب عفواً: تجاوز عنه، وعَفُوٌّ: صيغة مبالغة أى: كثير العفو. يقول الحق: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (٦٠) ﴾ [الحج]، ويقول الحق: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ ..(١٩٩) ﴾ [الأعراف] أى: خذ ما عفا عنه الناس وسمحوا به عن طيب خاطر، ومن دعاء القرآن الكريم: ﴿ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٨٦) ﴾ [البقرة] القاموس القويم (١ / ٢٧، ٢٨).

﴿ فَلَوْلا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ (١) مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ (٢) فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ .. (١١٦) ﴾ [هود]

أى: لولا أن كان فى الناس بقية من الخير وبقية من الإيمان ،وبقية من اليقين، وكانوا ينهون عن الفساد فى الأرض ، لولا هم لخسف الله الأرض بمن عليها.

والبقايا فى كل الأشياء هى نتيجة الاختيار ، والاختبار ؛ مصداقاً لقول الحق سبحانه:

﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ (٣) فَيَذْهَبُ جُفَاءً (٤) وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ (٥) فِي الأَرْضِ .. (١٧) ﴾ [الرعد]

---

(١) القرن من الناس: أهل زمان واحد. قال تعالى: ﴿ .. فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ (٦) ﴾ [الأنعام]، وجمعه: قرون. قال تعالى:﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا .. (١٣) ﴾ [يونس]. [القاموس القويم : مادة (قرن)].

(٢) فسد فساداً، والفساد: ضد الصلاح. وأفسده غيره: جعله فاسداً. قال تعالى:﴿ .. وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٦٤) ﴾ [المائدة]. وقال تعالى:﴿ .. وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٦٠) ﴾ [البقرة] ، وكلمة مفسدين حال مؤكدة لمعنى الفعل «تعثوا» أى: لا تفسدوا فى الأرض فساداً. [القاموس القويم : مادة (فسد)].

(٣) زبد الماء: ما يعلوه – عند جيشانه واضطرابه – من الرغوة وحطام الأشياء. وزبد المعادن: خبثها ونفايتها. قال تعالى: ﴿ فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا .. (١٧) ﴾ [الرعد] وقال تعالى: ﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً .. (١٧) ﴾ [الرعد] شبه الله – سبحانه – الباطل بالزبد الذى يلقى ويرمى؛ لأنه لا ينفع الناس. [القاموس القويم : مادة (زبد)].

(٤) جفأت القدر: رمت زبدها عند الغليان. وجفأ السيل غثاءه: رماه وقذفه. ومن عادة الطهاة أن يلقوا ما جفأت القدر بعيداً ليبقى الطعام خالصاً من الشوائب. قال تعالى:﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ .. (١٧) ﴾ [الرعد] أى: لا ينتفع به، ويلقى بعيداً، أو يذهب ضياعاً كالجفاء. [القاموس القويم : مادة (جفا)].

(٥) مكث مَكْثًا ومُكْثًا : أقام فى مكانه، وتفيد التأنى وعدم العجلة. قال تعالى:﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ .. (٢٢) ﴾ [النمل] أى: استمر الهدهد فى غيبته مدة لكنها غير طويلة. وقال تعالى: ﴿ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ .. (١٧) ﴾ [الرعد] أى: يبقى مدة طويلة فيها؛ فيزيدها خصباً. وقال تعالى: ﴿ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا .. (١٠) ﴾ [طه] أى: أقيموا فى مكانكم منتظرين. وقال تعالى:﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ .. (١٠٦) ﴾ [الإسراء] أى: على مهل وتأن بغير عجلة فى أزمنة متطاولة. [القاموس القويم : مادة (مكث)].

وفى العصر الحديث نقول: «البقاء للأصلح».

إذن: فالحق سبحانه إنما يحفظ الحياة بهؤلاء الذين ينهون عن الفساد فى الأرض ؛ لأنهم يعملون على ضوء منهج الله ، وهذا المنهج لا يزيد ملكاً لله ، ولا يزيد صفة من صفات الكمال لله ، لأنه سبحانه خلق الكون بكل صفات الكمال فيه ، ومنهجه سبحانه إنما يُصلح حركة الحياة ، وحركة الأحياء.

وهكذا يعود منهج السماء بالخير على مخلوقات الله ، لا على الله الذى كوَّن الكون بكماله.

واقرأ إن شئت قول الحق سبحانه:

﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧) أَلاَّ تَطْغَوْا (١) فِي الْمِيزَانِ (٨) ﴾ [الرحمن]

فكما رفع الحق سبحانه السماء بلا عمد ، وجعل الأمور مستقرة متوازنة ؛ فلكم أن تعدلوا فى الكون فى الأمورالاختيارية بميزان دقيق؛ لأن اعوجاج الميزان إنما يفسد حركة الحياة.

ومن اعوجاج الميزان أن يأخذ العاطل خير الكادح ، ويرى الناس العاطل ، وهو يحيا فى ترف من سرقة خير الكادح ، فيفعلون مثله ، فيصير الأمر إلى انتشار الفساد.

(١) طغى يطغو طغواناً وطغوى: بمعنى تجاوز الحد فى الجور والتعدى وطغى يطغى طغياناً: تجاوز الحد . و«طغوى» من الواوى، و«طغيان» من اليائى. قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ (١١) ﴾ [الفجر] أى: ظلموا وتجاوزوا الحد فى العصيان. وقال تعالى:﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ (٥) ﴾ [الحاقة] أى: بالصيحة التى تجاوزت الحد فى قوتها. [القاموس القويم : مادة (طغى)]. وجاء فى [كلمات القرآن للشيخ محمد حسنين مخلوف]: ﴿ .. وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧) ﴾ [الرحمن]: شرع العدل وأمر به الخلق. و﴿ أَلاَّ تَطْغَوْا .. (٨) ﴾ [الرحمن]: لئلا تتجاوزوا العدل والحق.

ويـنزوى أصحـاب الـمواهب ، فلا يعـمل الواحد منهم أكثر من قدر حاجته ؛ لأن ثمرة عمله إن زادت فهى غير مصونة بالعدالة.

وهكذا تفسد حـركة الحياة ، وتختل الـموازين، وتتخلف المجتـمعات عن ركب الحياة.

والحق سبحانه وتعالى يقول:

﴿ فَلَوْلا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ .. (١١٦) ﴾ [هود]

وشاء الحق سبـحانه أن يجعل أمة محمد ﷺ خـير الأمم بشرط أن يأمروا بالمعروف ، وينهوا عن المنكر.

قال الله تعالى:

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ [1] وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ [2] .. (١١٠) ﴾ [آل عمران]

وجعـلها الـحق سبحانه الأمـة الخاتمة ، لأنه لا رسالة بعد رسالة مـحمـد ﷺ ، وقـد كانت الرسـالات قـبـلهـا تأتى بعد أن يتـقلص الخير فى المجتمعات ، وفى النفوس.

فقد وضع الحق سبحـانه المنهج لأول الخلق فى النفس الإنسانية ، وكانت المناعـة ذاتية فى الإنسان ، إن ارتكب ذنباً فـهو يتوب ويرجع

---

(١) المعروف: ضد المنكر. وهو الذى تعارف الناس عليـه وعرفوا أنه حسن. قال تعالى: ﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى .. (٢٦٣) ﴾ [البقرة]. وقـال تعالى: ﴿ .. وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (١٩٩) ﴾ [الأعراف]. [القاموس القويم: مادة (عرف)] بتصرف.

(٢) المنكر: ما يستقبحه الشرع الشريف، ومـا تستنكره العقول السليمة. قال تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ .. (١٠٤) ﴾ [آل عمران]. [القاموس القويم : مادة (نكر)].

بعد أن يلوم نفسه ، ولكن قد يستقر أمره على المعصية ، وتختفى منه «النفس اللوَّامة» ، ويستسلم للنفس الأمَّارة بالسوء ، فيجد من المجتمع من يقوِّمه ، فإذا ما فسد المجتمع ، فالسماء تتدخل بإرسال الرسل ، إلا أمة محمد ﷺ فقد أمَّنها الحق سبحانه أنه سيظل فيها إلى أن تقوم الساعة من يدعو إلى الخير ، ومن يأمر بالمعروف، ومن ينهي عن المنكر [1]؛ ولذلك لن يوجد أنبياء بعد رسول الله ﷺ .

ولذلك يقول رسول الله ﷺ تأكيداً لهذا المعنى: «علماء أمتى كأنبياء بنى إسرائيل» [2].

والعَالِم: هو كل من يعلم حكماً من أحكام الله سبحانه ، وعليه أن يبلغه إلى الناس.

ورسول الله ﷺ يقول: «نضَّر الله وجه امرىءٍ سمع مقالتى فوعاها ، وأدَّاها إلى من لم يسمعها ، فرُبَّ مُبلَّغ أوعى من سامع» [3].

ويقول الحق سبحانه:

﴿ .. أُوْلُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ (١١٦) ﴾ [هود]

وقد أنجى الحق سبحانه بعضاً ممن نهوا عن الفساد فى الأرض.

---

(١) عن معاوية بن أبى سفيان قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا تزال طائفة من أمتى قائمة بأمر الله، لا يضرهم من خذلهم أو خالفهم حتى يأتى أمر الله وهم ظاهرون على الناس » أخرجه مسلم فى صحيحه (١٠٧٢).

(٢) ذكره العجلونى فى كشف الخفاء (١٧٤٤) وقال : «قال السيوطى فى الدرر: لا أصل له.» وكذا قال ابن حجر والدميرى والزركشى.

(٣) أخرجه أحمد فى مسنده (٤٣٧/١) وابن ماجه فى سننه (٢٣٢) من حديث ابن مسعود.

ونرى أمثلة على ذلك فى القرية التى كانت حاضرة البحر ، وكانت تأتيهم حيتانهم شُرعاً [1] يوم السبت الذى حرموا فيه الصيد على أنفسهم ، ويوم لا يسبتون لا تأتيهم.

ويقول الحق سبحانه:

﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ [2] قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً [3] إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٦٤) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ [4] بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ [5] (١٦٥) ﴾ [الأعراف]

---

(١) شرع: ظهر وأشرف فهو شارع أى: بارز ظاهر، وجمعه شُرَّعٌ: ﴿ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا .. (١٦٣) ﴾ [الأعراف] بارزة واضحة فى الماء. [القاموس القويم: ١/٣٤٦].

(٢) وعظه يعظه وعظاً وعظة: نصحه بالطاعة وبالعمل الصالح، وأرشده إلى الخير. قال تعالى مصوراً عناد الكافرين: ﴿ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ (١٣٦) ﴾ [الشعراء] فهم لشدة عنادهم وكفرهم يستوى عندهم الأمران: الوعظ، وعدم الوعظ.

والموعظة: ما يوعظ به من قول أو فعل. قال تعالى: ﴿ .. وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (٦٦) ﴾ [البقرة] وقال تعالى: ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ .. (١٢٥) ﴾ [النحل]. [القاموس القويم: مادة (وعظ)].

(٣) المعذرة: مصدر ميمى، واسم للعذر، وللحجة. وعذره: قبل عذره وسامحه. قال تعالى: ﴿ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ .. (١٦٤) ﴾ [الأعراف] أى: اعتذاراً له ببذل الجهد فى السعى لهداية الناس. وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ (١٥) ﴾ [القيامة]. [القاموس القويم : مادة عذر].

(٤) بؤس يبؤس بأساً: شجع واشتد، فهو بئيس، أى: شديد. ويقال: فارس بئيس، أى: قوى شجاع. قال تعالى: ﴿ .. وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٥) ﴾ [الأعراف] أى: عذاب شديد. [القاموس القويم : مادة (بؤس)].

(٥) فسقت الرطبة فسوقاً وفسقاً: خرجت من قشرتها. ومن هذا المعنى المادى أخذ المعنى المعنوى، فقيل: فسق الرجل: خرج من طاعة الله خروجاً فاحشاً. والفسق أعم من الكفر، فقد يكون فاسقاً ولا يكون كافراً؛ كالمسلم العاصى. قال تعالى: ﴿ .. إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا .. (٦) ﴾ [الحجرات]. وقال تعالى: ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا .. (١٨) ﴾ [السجدة] أى: كافراً غير مؤمن، فالفسوق هنا - فى الآية الأخيرة - بمعنى: الكفر. [القاموس القويم : مادة (فسق)] بتصرف.

هكذا أنجى الله سبحانه الذين نهوا عن السوء فى تلك القرية ، وقد نرى فى بعض المجتمعات عنصرين:

الأول: أنه لا توجد طائفة تنهى عن الفساد.

والعنصر الثانى: أن ينفتح على المجتمع باب الترف على مصراعيه، وفى انفتاح باب الترف على مصراعيه مذلَّة للبشر ؛ لأنك قد تجد إنساناً لا تترفه إمكاناته ؛ فيزيد هذه الإمكانات بالرشوة والسرقة والغصب.

وكل ذلك إنما ينشأ لأن الإنسان يرى مترفين يتنعمون بنعيم لا تؤهله إمكاناته أن يتنعم به.

ويقول الحق سبحانه وتعالى عن إهلاك مثل هذه المجتمعات :

﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا [1] .. (١٦) ﴾[الإسراء]

وبعض الناس يفهمون هذه الآية الكريمة على غير وجهها ؛ فهم يفهمون الفسق على أنه نتيجة لأمر من الله - سبحانه وتعالى - والحقيقة أنهم إنما قد خالفوا أمر الله ؛ لأن الحق سبحانه يقول:

﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ [2] لَهُ الدِّينَ .. (٥) ﴾ [البينة]

أى: أن الحق سبحانه أمر المترفين أن يتبعوا منهج الله ، لكنهم خالفوا المنهج الإلهى مختارين ؛ ففسقوا عن أمر ربهم.

---

(١) أمرنا مترفيها: أمرنا متنعميها بطاعة الله. ففسقوا: فتمردوا، وعصوا. [كلمات القرآن للشيخ محمد حسنين مخلوف].

(٢) أخلص دينه لله: طهّره وصفّاه من شوائب الشرك والرياء. قال تعالى: ﴿ .. فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ (٢) ﴾ [الزمر] ، وقال تعالى:﴿ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ (٤٦) ﴾ [سورة ص] أى: إنا اخترناهم وخصصناهم بفضيلة خالصة خاصة هى ذكرى الدار الآخرة، فذكراها والتذكير بها من شأن الأنبياء والرسل، وهى فضيلة عظيمة خاصة بهم. [القاموس القويم:مادة (خلص)].

وفى الآية الكريمة التى نحن بصدد خواطرنا عنها:

﴿ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ .. (١١٦) ﴾ [هود]

وقوله سبحانه: (ظلموا) تبين أن مادة الترف التى عاشوا فيها جاءت من الظلم ، وأخذ حقوق الناس وامتصاص دماء الكادحين.

ومادة (ترف) تعنى النعمة يتنعم بها الإنسان. ومنها: أترف ، وأترف ، وكلمة «أترف» أى: أطغته النعمة ، وأنسته المنعم سبحانه. وأترف ، أى: مد الله له فى النعمة ليأخذه أخذ عزيز مقتدر.

والحق سبحانه يقول:

﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ[1] كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً[2] .. (٤٤) ﴾ [الأنعام]

فمن يمسك عدوه ليرفعه ؛ فلا يظنن ظان أنه يدلله ، ولكنه يرفعه ليلقيه من عل ، فيزداد ويعظم ألمه . وكأن الله سبحانه قد أعطى أمثال هؤلاء نعمة ؛ ليطغوا.

ولنا أن ننتبه إلى كلمة «الفتح» التى تجعل النفس منشرحة ، وعلينا أن ننتبه إلى المتعلق بها ، أهو فتح عليك ، أم فتح لك ؟

---

(١) الباب: مدخل المكان، وجمعه: أبواب، ويستعمل مجازاً فيما يوصل إلى غيره ، قال تعالى: ﴿ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا .. (٥٨) ﴾ [البقرة] هو باب حقيقى للبلد.
وقال تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ .. (٧٧) ﴾ [المؤمنون] أى: أصبناهم بعذاب شديد، كأنه خلف باب مغلق ففتح وتدفق العذاب عليهم. وقال تعالى: ﴿ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ .. (٤٤) ﴾ [الأنعام] أى: منحناهم أصناف النعم من صحة ومال وجاه، وغير ذلك، كأنها كانت خلف أبواب مغلقة ففتحت. [القاموس القويم مادة ب و ب].

(٢) بغته بغتاً وبغتة: فاجأه على غرّة وغفلة. قال تعالى: ﴿ .. فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٩٥) ﴾ [الأعراف] . [القاموس القويم: مادة (بغت)].

إن فُتح عليك ؛ فافهم أن النعمة جاءت لتطغيك ، ولكن إن فُتح لك ، فهذا تيسير منه سبحانه ، فهو القائل:

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا [1] لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝ ﴾ [الفتح]

وهؤلاء الذين يحدثنا الحق سبحانه عنهم فى هذه الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها ؛ قد فتح الله سبحانه عليهم أبواب الضر ؛ لأنهم غفلوا عنه.

ويُنهى الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله:

﴿ .. وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ۝ ﴾ [هود]

أى: كانوا يقطعون ما كان يجب أن يوصل ؛ وهو اتباع منهج السماء ؛ لأن كلمة (مجرمين) مأخوذة من مادة «جرم» [2] وتعنى: «قطع» ، وقطع اتباع منهج السماء ؛ والغفلة عن الإيمان بالخالق سبحانه ، والاستغراق فى الترف الذى حققوه لأنفسهم بظلم الغير ، وأخذ نتيجة عرق وجهد الغير.

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك:

---

(١) فتح يفتح فتحاً: ضد أغلق. ويسمى النصر على العدو فتحاً لأنه يفتح بلاده للمنتصر. قال تعالى: ﴿ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ .. ۝ ﴾ [الأعراف] أى: انصرنا عليهم، ويجوز أن يكون المعنى: ربنا افتح بيننا وبين قومنا باب التفاهم والمحبة بالحق حتى يؤمنوا ويتركوا عنادهم. وقال تعالى: ﴿ لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ .. ۝ ﴾ [الأعراف] أى: لا يرضى عنهم الله، ولا ينالون رحمته كان السماء مغلقة أمامهم كما تغلق أبواب الملوك في وجه الذين لا يرغبون في لقائهم. [القاموس القويم : مادة (فتح)].

(٢) جرم الشيء جرماً: قطعه، وغلب هذا الفعل على عمل الشر. يقال: جرم: أذنب، وجنى جناية. وجرم المال: كسبه من أى وجه. وجرمه: حمله على فعل شر أو ذنب وجرم. قال تعالى: ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا .. ۝ ﴾ [المائدة] أى: لا يحملنكم بغض قوم على عدم العدل، أى: التزموا العدل حتى مع من تكرهونهم. أى: اعدلوا دائماً فالعدل أقرب للتقوى. [القاموس القويم – مادة : جرم].